WWW.ATTAWEEL.COM

مجلة تراثية فصلية محكمة

المجلد الخامس والعشرون ـ العدد الاول ـ ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

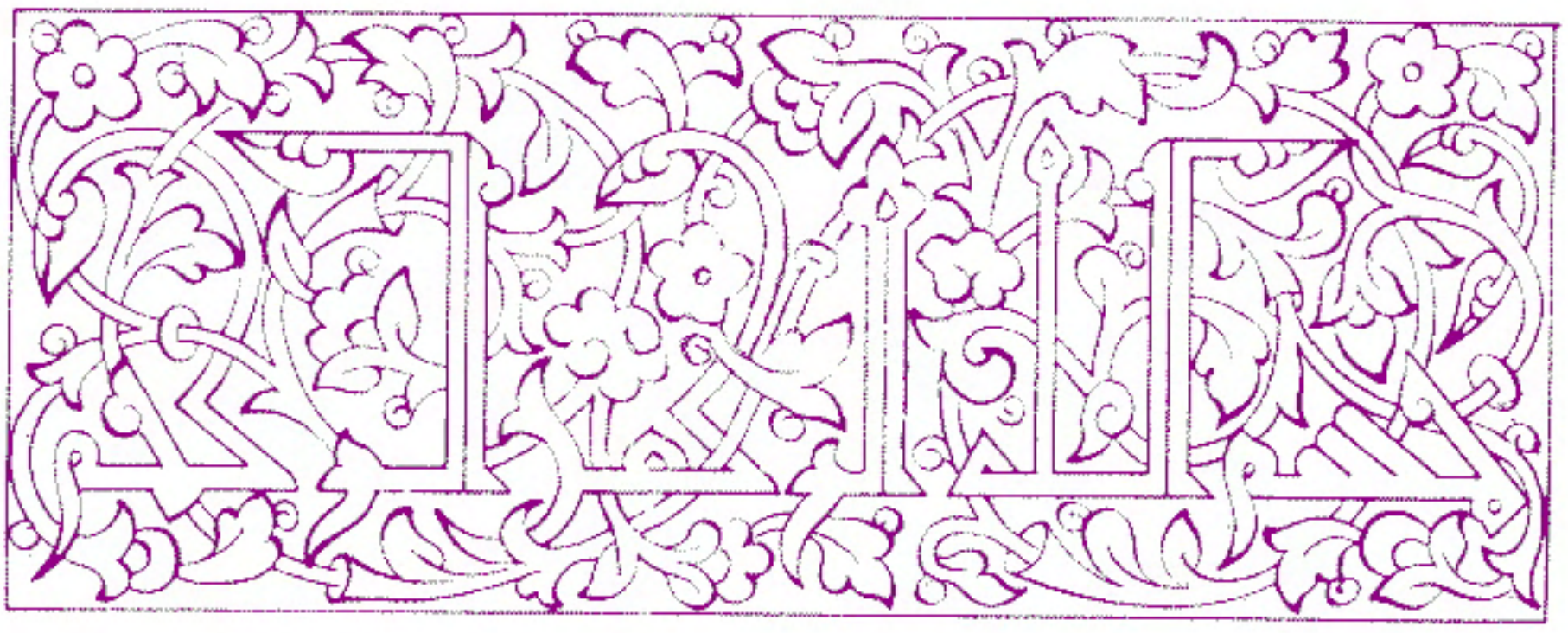

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق

أسد الدين محمد

سامراء في القرون المتأخرة

د. عماد عبد السلام رؤوف

كلية التربية ابن رشد - جامعة بغداد

حينما وصلت جحافل المغول الى منطقة دُجَيل في محرم سنة ٦٥٦ هـ كانون الثاني ١٢٥٨ م كانت سامراء المعمودة ضمن هذه المنطقة ، قد امست مجرد قرية عادية ، بين مئات القرى التي تقاربها ، بل تزيد عليها سعة وكثافة في السكن[1] . وقد وصف الرحالة ابن بطوطة ما آل اليه امرها ، عند مروره بها سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧ م بانها « استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل »[2] وبزوال مراكز المدينة القديمة ومعالمها المهمة ، ظهر مركز جديد مستقطب حوله من تبقى من اهلها ، هو الموضع الذي دفن فيه الامامان علي الهادي بن محمد الجواد (المتوفى سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م) وابنه الحسن العسكري (المتوفى سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م) بينما خلت المدينة القديمة من اي مظهر من مظاهر الحياة والعمارة .

وتفيد النصوص التاريخية والبلدانية التي وصلتنا من القرن الثامن ، ان اسم « سامراء » لم يعد علماً على اية وحدة ادارية ، او منطقة زراعية ، وانما توزع اقليمها بين وحدتين ، اولاهما « دجيل » ومركزها بلدة « اوانا » والاخرى « حربى » وتقع في اعلى دجيل بين بغداد وتكريت[3] . وما لبثت الوحدتان ان اندمجتا في تكوين اداري واحد ، تحت اسم « دجيل »[4] «كانت سامراء واحدة من قرى هذا التكوين .

التطور العمراني

وكان وجود اضرحة الائمة (حيث عرف مكانها بالمشهد العسكري) سبباً في ايلاء البلدة شيئاً من الاهتمام في فترات متباعدة ، على ان هذا الاهتمام ظل مقصوراً على تعمير المشهد نفسه كلما اصابه وهن ، او الزيادة فيه احياناً ، ففي سنة ٧٥٠ هـ/ ١٣٤٩ م قام حاكم العراق الشيخ حسن الكبير باجراء اصلاحات واسعة في المشهد ، شملت تزيين الضريح ، وتشييد قبة ومآذن ، وعمل بهو امام المشهد ، ونقل المقابر التي كانت ظاهرة في صحنه الى الصحراء في خارجه[5] . بيد انه لم يمض الا اقل من نصف قرن على هذا التعمير ، حتى غزت العراق جيوش تيمورلنك ، لتدمر آخر ما تبقى من حضارة المدن العراقية ومعالمها ، فكانت سامراء واحدة من البلدان التي تعرضت الى اعماله التخريبية . ففي رواية متاخرة ساقها مؤرخ عراقي من اهل القرن الثاني عشر للهجرة (١٨ م) « ان آثار غدر تيمور مازالت ماثلة للعيان في سامراء »[6] وهي اشارة مهمة ، لانها تدل على فداحة ما الحقه بها هذا المحتل من خراب ودمار ، ونحن نعلم ان تيموراً كان يستهدف في اعماله العسكرية تدمير المدن التي يبدي اهلها المقاومة والكفاح بالدرجة الاولى ، فما هي طبيعة ما ابداه اهل هذه البلدة الصغيرة من ضروب المقاومة يا ترى حتى استحقوا عليها هذا المصير ، ذلك ما طوته صحائف النسيان ، وسكتت عنه مصادر العصر . ومن المعروف ان تيموراً دمر مدينة تكريت القريبة تدميراً هائلاً ظلت آثاره مرئية ، شاهدة على قسوته لعدة قرون من بعده ، وذلك في اوائل سنة ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣ م وان احد قادة جيشه ، وهو ابنه شاه رخ ، عسكر - وهو في طريقه للانضمام الى جيش ابيه - في بلدة « اوانا » مركز اقليم دجيل ، ثم في « حربي » وكلاهما قريب من سامراء[7] ، فمن المحتمل ان يكون ما اصاب الاخيرة من تخريب قد جرى في اثناء تلك الظروف العصيبة ، وبسببها .

وبعد مضي ما ينيف على قرن واحد ، عادت سامراء لتشهد ، من جديد ، حركة البنائين ، ولتسمع اصوات معاول التعمير . ففي سنة ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨ م تم صنع صندوق فخم من الخشب المطعم بالفسيفساء ، والمزين « بالنقوش الاسليمية والختائية » ليوضع على الضريح ، بدلاً من الصندوق القديم[8] .

وامتدت يد التعمير سنة ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٣ م لتشمل الاروقة والقبة والصحن، كما زين الضريح ايضاً[٩]. وفي سنة ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٣ م اعيد تعمير ضريح الامام علي الهادي والقبة والصحن[١٠]. بيد ان حريقاً شب في المشهد، بعد هذا التعمير، اصاب اخشابه وشمث اركانه، فاستدعى ذلك العناية به، سنة ١١٠٦ هـ/ ١٦٥٤ م، عناية شاملة، تضمنت دعم تلك الاركان وتزيينها «بابهى ساج» واحيط الضريح بشباك من الفولاذ، وبلطت الارض بالرخام[١١] وفي سنة ١١١٧ هـ/ ١٧٠٥ م زار والي بغداد حسن باشا ضريحي الامامين «فانعم على خادميهما بالحلل الضافية وبث في ساحتيهما النقود النقرة الصافية»[١٢]. وفي حدود سنة ١٢٠٠ هـ/ ١٧٨٠ م قام احمد خان الدنبلي، احد سراة خوي وسلماس ورومية، بتعمير المشهد تعميراً بديعاً، اذ وسع صحنه ورواقه، وبنى الحائط المحيط بالحرم بالرخام المصقول، وابدل الاخشاب التي في المقام بالحجر الصوان والرخام، وعمر سرداب الغيبة وبدل بابه الخارجي الذي في صحن العسكريين وجعله عند باب الجامع الكبير وقد استمرت هذه الاعمال حتى سنة ١٢٢٥ هـ/ ١٨١٠ م، اذ شملت اكساء قبة الامام محمد المهدي بالاجر المزجج (القاشاني) واكمال بناء البهو وابوابه وكتابة الايات على جدرانه[١٣].

وعلى الرغم من التوسعة المستمرة للمشهد العسكري، فإن سجلات الاراضي العثمانية الرسمية، الموضوعة في القرن العاشر للهجرة، تخلو من اية اشارة الى ما عليها من اوقاف، بل انها لا تشير الى «سامراء» نفسها، بينما تذكر قرى قريبة منها، مثل «اوانا» و«صريفين» و«الجوسق» و«حصاية» و«حربي» و«جرم سرية» و«باب الشمال» و«بلاشة» و«بني جعفر» و«قصر سميكة» بوصفها توابع للوحدة الزراعية المسماة «بلوك دجيل من اعمال بغداد»[١٤].

وكان لتحول طرق التجارة بين بغداد والموصل، من الجانب الشرقي لدجلة، حيث تقع سامراء، الى الجانب المقابل، اثره في قلة عدد النازلين بها من التجار والرحالين، خاصة وانه لم يكن ثمة جسر يصل بين الجانبين عصر ذاك، واكثرهم كان يفضل النزول في خرائب قصر المعشوق (العاشق) المقابل لها، من الجانب الغربي، على العبور الى بلدة سامراء، اوان زيارته تكون ـ للسبب نفسه ـ وقصيرة خاطفة. ومن هنا جاءت اغلب كتاباتهم عنها مبتسرة، عامة، تعوزها التفاصيل، فالرحالة الفرنسي تافرنييه الذي زارها سنة ١٠٤١ هـ/ ١٦٣٢ م لم يلفت نظره الا «ملويتها» الشاخصة، دون ان يمتد نظره ليشمل البلدة الحديثة، وسجل لنا ما كان يعتقده بعض الناس عن دفن اربعين نبياً فيها[١٥]، ولعل شيئاً من الالتباس قد حصل لديه بين سامراء وتكريت، فمن الراجح انه اراد بهذا المدفن الموضع المعروف في تكريت بمقام الاربعين. اما الرحالة الدمشقي مصطفى بن كمال الدين الدمشقي الذي مر بها سنة ١١٢٩ هـ/ ١٧٢٧ م فاقتصر في ملاحظات على تسجيل اعجابه بقبتي الامامين الهادي والعسكري[١٦] ولم يزد على ذلك شيئاً، وقريب منه ما فعله الرحالة عباس بن علي المكي في رحلته سنة ١١٤٨ هـ/ ١٧٣٥ م اذ اكتفى بزيارة قبري الامامين، وتقديم نبذة قصيرة حول تاسيس المدينة على يد الخليفة المعتصم[١٧]. وعلى الرغم من دقة الرحالة الفلكي كارستن نيبورC . Niebuhr في وصفه المدن، فان وصفه لسامراء سنة ١١٧٥ هـ/ ١٧٦١ جاء مبتسراً، اقتصر فيه على التنويه بقبور الائمة وحاول وصف مئذنة جامعها الاثري القديم خارجها «الملوية» مشبهاً اياه ببرج الرصد في كوبنهاكن[١٨]. اما الكابتن جون ماكدونالد كينير Kinnier الذي مر بها سنة ١٢٢٨ هـ/ ١٨١٣م فانه وصف مشهدها بقوله «بناء جميل من طابوق تعلوه قبتان ومنارتان مزينتان بالكاشي الملون الذي يتباهى به العرب، ويبدو بمنظر جذاب حينما تتساقط اشعة الشمس عليه» وعدا ذلك، فانه لم يصف الا اطلال المدينة القديمة الشاخصة خارجها[١٩].

شهدت سامراء توسعاً محسوساً في القرن الثالث عشر للهجرة(١٩ م) ومن المؤكد ان الزيادة المطردة في اعداد زوارها، ممن كانوا يقصدون ضريحي الامامين الهادي والعسكري، كانت سبباً مباشراً في تنشيط حركتها التجارية، ومن ثم زيادة السكن فيها، فاطمع ذلك بعض الجماعات المسلحة غير المنضبطة حولها في مهاجمة نور البلدة واسواقها او فرض الاتاوات عليها، ولذا فقد اتجهت النية الى تسويرها، حماية لاهلها وزوارها من التعديات. وفي حدود سنة ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٤ م انشيء حول سامراء الحديثة اول سور يحيط بها[٢٠] من الآجر والجص، وقد بلغ محيطه كيلومترين، وقطره ٦٨٠ متراً، وارتفاعه سبعة امتار، وله تسعة عشر برجاً، واربعة ابواب متجهة نحو الجهات الاربع المعروفة، هي: باب الناصرية، ويعرف ايضر بالحاوي، من الشمال، وباب القاطون (او القاطول) من الغرب، وباب المطوش (بمعنى: المسدود) من الجنوب، وباب بغداد من الشرق[٢١].

وقد سجل الرحالة فيلكس جونز Gones . Felix الذي زار البلدة سنة ١٢٥٩ هـ/ ١٨٤٣ م بعض ما لحقها من توسع في عهده، فنوه بسورها الذي لم يكن قد مضى على بنائه وقت طويل ايام قدومه اليها، واشاد بمتانته، الا انه لاحظ ان هذا السور بعيد نسبياً عن شاطيء النهر، ومن ثم يستطيع الاعداء تخريب القناة التي تاخذ المياه الى البلدة، ومن ثم ارغامها على الرضوخ لمطالبهم. ووصف قبتي المشهد، معتقداً ان قبة الامام الحسن العسكري كانت مكسوةبالذهب، ثم ازيل[٢٢] وهو اعتقاد غير صحيح لان اكساءها بالذهب لم يجر الا بعد ذلك التاريخ

بمدة ، وعدا ذلك ، فإن اغلب ما ذكره يتعلق بآثار سامراء القديمة : المسجد الجامع (ويسميه المدرسة ايضاً) ومئذنته الملوية ، وقصر الخليفة وقصر العاشق وتل المليح وغير ذلك .

ولاحظ جون أشر Ussher , Gohn الذي مر بالبلدة سنة ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤ م انها ليست صغيرة بحال ، وان فيها عدداً كبيراً من السكان ، ونوه بكثرة ما حولها من خرائب[٢٢] ولم تمض الا ثلاث سنوات ، حتى قدم الى سامراء الرحالة الهولندي نيجهولت . ل Nijholt فاشار الى سورها المستجد ومدافن الائمة فيها ، ويبدو ان نشاطاً تجارياً قد اخذ يبين في هذا العهد ، رغم صغر سوق البلدة يومذاك ، يقول« ان القرية الحاضرة تضم سوقاً صغيرة تتالف من بضعة دكاكين يباع فيها التبغ والرز والتمور والتفاح الاخضر .. الخ »[٢٣] وواضح ان جميع هذه المواد كان مما يجلب الى سوق المدينة من خارج اقليمها نفسه .

وكان المشهد العسكري نفسه قد شهد في السنوات ١٢٨١ ـ ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٢ ـ ١٨٦٨ م آخر التعميرات المهمة ابان العصر العثماني ، فقد جرى اكساء قبة المشهد بقطع الآجر المطلي بالذهب ، وتم تعمير الضريح والرواق وترميم الصحن واكساء المآذن وتعمير السور الذي بناه الدنبلي وفتح ابوابه ، وغير ذلك من اعمال اصلاح شامل . وفي سنة ١٢٩٥ هـ/ ١٨٧٨ م استؤنف العمل مرة اخرى بتبرع بعض اهل الخير ، ليشمل اكساء الاروقة بمرايا ذوات اشكال هندسية بديعة ، ونصب الساعة الكبيرة فوق باب القبلة ، وبناء المدرسة والحمام وغيرها . وفي سنة ١٣١٨ هـ/ ١٩٠٠ م تم وضع المرايا الكبيرة فرق الرخام ، والخطوط المنسوبة حول المشهد[٢٤] .

ومع استمرار تزايد عدد السكان ، امتد السكن الى مناطق لم تكن قد اتخذت لهذا الغرض من قبل . وتوثقت صلات البلدة بما حولها من قصبات وقرى ، فانشيء اول جسر على دجلة يصل بين جانبيها سنة ١٢٩٤ هـ/ ١٨٧٨ م واسست اول شركة لنقل الركاب بين بغداد وسامراء بالطريق النهري سنة ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨١ م وافتتحت دائرة للبرق والبريد سنة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٨ م كما عرفت البلدة ايضاً عدةمنشآت دينية وخدمية اخرى ، منها مساجد وحمام وخان وغير ذلك[٢٥] .

ادارة البلدة :

ليست ثمة معلومات تاريخية عن طريقة ادارة سامراء في الحقبة اللاحقة للعصر العباسي ، ومن المرجح لدينا ـ بناءً على امثلة مشابهة ـ انها كانت تدار من قبل « ناظر المشهد » الذي هو ـ في الوقت نفسه ـ زعيم العشيرة الاقوى في البلدة . اما في العصر العثماني ، فان لدينا من النصوص ما يشير الى انها كانت تعهد الى موظف بلقب (ضابط) يتبع ولاة بغداد مباشرة[٢٦] وان في معيته نحو الفه رجل مسلح ، من غير السكان[٢٧] . ويظهر ان تعيين الضباط في هذا المنصب كان يجري وفقاً لنظام الالتزام ، وهونظام اقطاعي مالي واداري في وقت واحد ، ويذكر جونز ان البلدة اقطعت في وقت زيارته لها سنة ١٢٥٩ هـ/ ١٨٤٣ م الى ضابط لقاء مبلغ (٢٨٠,٠٠٠) قرش او ما يعادل (٦٦٠) باونا استرلينياً تقريباً[٢٨] وفيما عدا ذلك المنصب ، فإن « ناظر المشهد » كان له ثقل واضح في تسيير شؤون البلدة ورعاية مصالحها ، وقد تولت عشيرة عرفت بـ« القوشجية » (وهي تسمية تركية تعني حرفياً اصحاب الطيور) سدانة المشهد المذكور منذ عهد بعيد ولكن نظراً للمشاكل التي حدثت في عهدهم ، فإن تحالفاً جرى بين بعض عشائر البلدة الاخرى ، منهم البو صالح والبو عباس (وهما عشيرتان حسينيتان) لإخراجهم ، وقد اخرجوا منها بالفعل في زمن غير محدد لنا ، ليتولاها رجال من البو صالح ، وكادت مذبحة دبرها خصومهم ان تقضي على البو صالح ، الا ان الاخرين تمكنوا من العودة الى السلطة بدعم مباشر من داود باشا آخر ولاة المماليك في بغداد سنة ١٢٣٣ هـ/ ١٨١٧ م ليتولونها دونما انقطاع[٢٩] .

ويشير مؤرخ بغدادي ، من اهل القرن الثالث عشر للهجرة (١٩ م) هو عبد الرحمن حلمي العباسي الدوري الى ان جداً له ، هو الشيخ محمد صالح العباسي المعروف بالخطيب البغدادي ، او خطيب دار السلام كان « حاكماً اقطاعياً يحكم الدور وسر من رأى وتكريت والدجيل وما والاها شرعاً وادارة ولقب بمتولي الدور وسر من رأى وتكريت والدجيل ومتسلمها وقاضيها الى غير هذه الالقاب التي كانت تختلف باختلاف تولي الولاة مدينة بغداد »[٣٠] فإن صحت هذه الرواية ، تكون ادارة سامراء قد فوضت ، في فترات من الحكم العثماني ، الى رجال من اهل اقليمها ، جمعوا بين ايديهم السلطات الادارية والشرعية على حد سواء ، بموجب نظام الالتزام نفسه ولذا فلم يكن ثمة تحديد دقيق لالقاب هؤلاء الادارية .

وبموجب التنظيمات الادارية الحديثة التي طبقت في العراق في اواخر العصر العثماني ، عدت سامراء مركزاً للقضاء باسمها ، شمل ناحية واحدة ، هي تكريت . وتقدم لنا سالنامات ولاية بغداد (اي كتبها الرسمية السنوية) اسماء عدد كبير من القائممقامين فيها ، اولهم سنة ١٢٧٧ هـ/ ١٨٦٠ م سامي افندي ، وآخرهم صالح افندي ، وهو آخر قائمقاميها العثمانيين وقد غادرها قبيل احتلال البريطانيين لها سنة ١٣٣٥ هـ/ ١٩١٧ م[٣١] .

التكوين الاجتماعي

تناقص عدد سكان سامراء بسرعة فائقة منذ ان غادرتها الخلافة بمؤسساتها وجندها ، ولم يبق من سكانها الكثيرين ، الا قلة من الناس تجمعوا في حي او حيين من احيائها القديمة ، احدهما حي « العسكر » (وهو الذي نسب اليه الامام الحسن العسكري)[٢٢] الذي تحول ، مع مرور الوقت ، الى بلدة سامراء الحديثة كما عرفت في القرون المتاخرة .

وليست ثمة نصوص تاريخية توضح الاصول الاجتماعية لتلك القلة الباقية من السكان ، فالعلماء والشعراء الذين عاشوا في العصر العباسي وما بعده ممن وردت اخبارهم في كتب التراجم ، سكتت تلك الكتب عن ذكر انساب اغلبهم واكتفت بذكر نسبهم الى المدينة كما هي عادتها في اكثر الاحوال . ويفيد المأثور المتواتر لدى اهل سامراء[٢٣] ان هؤلاء السكان كانوا يشكلون مجموعة متحدة النسب رافقت ركب الامام علي الهادي من الحجاز الى مستقره في سامراء ، وقد تولى احفاد الامام المذكور ، او اقارب لهم ، ينتمون جميعاً الى الامام موسى الكاظم ، نقابة الاشراف في سامراء في العصر العباسي[٢٤] وبعد زوال مؤسسة النقابة في العصر التالي ، وبروز مؤسسة السدانة بدلها ، تقاسم هؤلاء ، وقد اصبحوا عدة من العشائر المستقلة ، مسؤولية حماية « المشهد » وادارته ، وبالمقابل فإنهم تقاسموا ما كان يرده من اموال المتبرعين ، وهكذا كانت عشيرة (البو صالح) تتولى السدانة (الكليدارية) ولها - على ذلك - ربع اموال المشهد ، بينما يحصل (البو نصيف) وهم فرع آخر من البو صالح ، على ربع آخر ، ويحصل كل من عشيرة (البو باز) وعشيرة (العشاعشة) على الربعين المتبقيين ، واذ كنا لا نملك تحديداً لتواريخ هجرة العشائر او استقرارها ، فإن في وسعنا ان نعد تقاسم هذه العشائر الحسينية مسؤولية السدانة قرينة مهمة تدل على قدم وجودها في سامراء ، بل ربما كانت اقدم العشائر سكناً في البلدة . وثمة موارد اخرى ، ذات صفة ثانوية ، تقاسمتها عشائر اخرى ، وهم البو عباس ، والبونيسان ، والبوعاصي ، فضلاً عن حصة رابعة لالبو صالح ايضاً ، ومن ثم فإنهم من العشائر القديمة في سامراء ، وربما قاربت في قدمها تاريخ العشائر المتقدمة . وعدا ذلك ، فثمة عشائر حسينية اخرى لم تكن لها صلة مالية بالمشهد ومن المرجح انها قديمة الاستيطان في سامراء ايضاً ، كالبو دراج والبو اسود والبو عيسى والبو عظيم[٢٦] .

وتقيم هذه العشائر في تجمعات خاصة بها داخل اسوار مدينة سامراء ، ويرتبط بكل تجمع باب من ابوابها ، فالبو بدري والعشاعشة يختصون بباب الناصرية ، والبو عبد الرحمن يختصون بباب الملطوش ، والبونيسان والبوعباس يختصون بباب القاطون ، بينما يختص البوباز والبوعظيم بباب بغداد ، على ان ذلك التوزيع لا يمنع وجود مجموعات من عشائر اخرى في البلدة[٢٧] .

وعلى الرغم من عدم وجود احصاء ، او حتى تقدير رسمي ، لعدد السكان في سامراء حتى آخر العصر العثماني ، فإن في وسعنا ان نخمن هذا العدد وفقاً لكتابات بعض السياح والرحالين الذين مروا بالبلدة منذ القرن الثالث عشر للهجرة (١٩ م) . ويذكر كيلج سنة ١٢٢٨ هـ/ ١٨١٣ م ان سامراء تحتوي على الفي نسمة[٢٨] ويفيد المنشي البغدادي ان عدد بيوت سامراء ، في ايام كتابته رحلته سنة ١٢٣٧ هـ/ ١٨٢١ م ، بلغ الفي بيت (اي ما يزيد على عشرة آلاف نسمة) وان زوارها كانوا يقدرون بنحو ثلاثين الف نسمة[٢٩] ، ولا شك في وجود مبالغة في هذا التقدير ، بالنظر لصغر المساحة المأهولة من البلدة عهدذاك ، ولاختلافه مع التقديرات المتقدمة واللاحقة مما اورده الرحالون المتعاقبون .

وكانت سامراء قد اخذت بالتوسع والنمو في منتصف القرن الثالث عشر (١٩ م) فبلغ عدد سكانها - وفقاً لتقدير جونز - ٢٥٠ بيتاً ، اي نحو الف وخمسمائة نسمة ، اضافة الى الف نسمة آخرين يظهر انهم كانوا مكلفين بحماية البلدة[٣٠] وقد زاد هذا العدد في النصف الثاني من القرن المذكور ليصل - حسبما ذكر نيجهولت سنة ١٢٨٤ هـ/ ١٨٦٧ م - الى ٤٠٠ اسرة[٣١] ، وهذه زيادة مهمة اذا قورنت بالتقديرات السابقة . وقد استمر العدد بالزيادة ، حتى بلغ - بموجب اول احصاء رسمي سنة ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٠ م (٧١٨٧) نسمة[٣٢] .

الحياة الثقافية :

ثمة اشارات مهمة تدل على استمرار الحياة الثقافية في سامراء حتى في ظل اكثر حقب تاريخها ركوداً ، فممن نوهت بعلمهم وفضلهم كتب التاريخ والتراجم من اهل العلم والادب في هذه البلدة ، الشيخ اسماعيل بن جعفر بن عبد الرزاق السامرّي (تولى سنة ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م) وكان نحوياً مقرئاً اديباً ، له تصانيف في القراءات وشعر[٣٣] . والشيخ الصدر الاديب سيف الدين احمد بن محمد السامرّي كان تاجراً اديباً شاعراً ، عاش ربحاً من حياته في بغداد ، ثم هاجر الى حلب حيث حظي عند صاحبها الناصر ، واشتهر بجزالة شعره ، ونظم ارجوزة عرفت بالسامرية (نسبة الى سامرا) فضح فيها خصومه ، وكانت له اوقاف واملاك وثروة . وله اخ اقام في اليمن مدة ، يدعى نور الدين السامري ، لم نقف على ترجمته ، وتوفي سيف الدين سنة ٦٩٦ هـ/ ١٢٩٧[٣٤] . ومنهم ايضاً كمال الدين ابو غالب هبة الله بن علي بن عبد الله السامري البغدادي (ولد سنة ٦١٦ هـ وتوفي سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢١٩ - ١٢٩٨ م) « وكان شيخاً عالماً فقيهاً زاهداً عابداً جليلاً ثقة ، من بيت العلم والحديث » . والشيخ جمال الدين يوسف بن محمد بن سعود المبادي العقيلي السامري (ولد سنة

٧٧٦ هـ/ ١٢٩٦ - ١٣٧٤ م) وكان شيخاً حافظاً محدثاً له مؤلفات تزيد على مائة مصنف في بضعة وعشرين علماً ، اخذ عنه كبار علماء عصره ، منهم الحافظ الذهبي وغيره[٤٥] . ومنهم ايضاً الشيخ عز الدين عبد العزيز بن ابراهيم بن بي السامري (القرن السابع للهجرة)[٤٦] والشيخ خليل الخطيب بن محمد بن ياسين السامرّي (كان حياً سنة ١١١٩ هـ/ ١٧٠٧ م) وكان عالماً بارزاً « له رواية من كتب حديث وفقه وتفسير وآلات وانشاء وتحرير »[٤٧] .

واذا كان بعض هؤلاء الفضلاء ممن قضى شطراً من حياته خارج بلدته الاولى ، وان نُسب اليها ، فإن البلدة نفسها لم تعدم وجود علماء وكتب وتدريس وقد وقفنا على خبر خزانة كتب في سامراء للشيخ احمد بن احمد ابان اواخر القرن العاشر للهجرة (١٦ م) وعلمنا ان كاتباً يدعى عبد الله بن احمد الطارقي كان ينسخ الكتب برسم هذه الخزانة ، ومن تلك الكتب « الروض الفائق في المواعظ والرقائق » تاليف : شعيب الحريفيشي المتوفي سنة ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م وقد انجز نسخه سنة ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩ م[٤٨] .

وثمة مخطوطات في المكتبة القادرية ببغداد ، انتقلت اليها من خزائن كتب علماء سامرائيين من اهل القرن الثاني عشر للهجرة (١٨ م) منهم السيد حسين بن السيد عبد الرحمن خطيب الامامين العسكريين سنة ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣ م ، والسيد حبيب بن الملا علي خطيب سامراء سنة ١١٩٦ هـ/ ١٧٨١ م[٤٩] .

ويظهر ان البلدة لم تخلو - ابان تلك الحقبة - من جهة تدريس او مدرسة ، ففي اول مخطوطة « الهدية السفرية والحضرية في شرح القصيدة الرائية المضرية » الموجودة في خزانة المرحوم السيد محمد سعيد الراوي ببغداد نقرأ تمليكاً لمن يدعى « ناصر الدين الحسيني المدرس في سامراء » مؤرخ في سنة ١٢١٢ هـ/ ١٧٩٧ م[٥٠] وآخر ما وصلنا من اخبار خزائن الكتب فيها ، خزانة مفتيها الشهير عباس حلمي القصاب (ولد سنة ١٢٧٦ وتوفي سنة ١٣٣٥ هـ/ ١٨٥٩ - ١٩١٦ م) التي احتوت على مجموعة ضخمة ونفيسة من المخطوطات ، تبدد معظمها ، ونقل منها - عند وفاته - ما قدر بخمسها الى بغداد[٥١] ، ومثلها ايضاً خزانة كتب الشيخ احمد بن محمد امين الراوي (ولد سنة ١٣٠٠ وتوفي ١٣٨٥ هـ/ ١٨٨٢ - ١٩٦٦ م) وفيها عدد من الكتب الخطية المهمة[٥٢] .

وفي اواخر القرن الثالث عشر انشئت في سامراء مدرستان دينيتان على مستوى رفيع ، اولاهما المدرسة العلمية المؤسسة سنة ١٢٩١ هـ/ ١٨٧١ م والاخرى المدرسة العلمية المعروفة بالحميدية ، المؤسسة سنة ١٣١٦ هـ/ ١٨٩٨ م وقد خرجت كل واحدة منها اجيالاً من العلماء ، وحوتا خزانتي كتب فيها مخطوطات قيمة ، ونشرت فهارسهما منذ حين[٥٣] . وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت ثمة مدرسة رسمية اولية تدرس فيها مباديء العلوم باللغة التركية[٥٤] .

وليس ادل على نماء البيئة الثقافية في سامراء في هذه الحقبة ، وتوفر عناصرها ومحفزاتها ، تلك الكثرة من العلماء والادباء والشعراء والمؤلفين الذين نبهوا فيها ونبغوا ، واكثرهم ممن خضرم العهدين العثماني والوطني ، وحفلت بهم كتب التراجم ومعاجم المؤلفين[٥٥] .

الهوامش :

(١) ثمة نصوص تاريخية وبلدانية عديدة تشير الى ان عملية اضمحلال سامراء وخرابها بدأت بعد ان غادرتها الخلافة العباسية في القرن الثالث للهجرة (٩ م) مباشرة ، يقول ابن حوقل (القرن ٤ هـ) « ومدينة سر من رأى في وقتنا هذا مختلة واعمالها وضياعها مضمحلة ، قد تجمع اهل كل ناحية منها الى مكان لهم به مسجد جامع وحاكم وناظر في امورهم ، وصاحب معونة يصرفهم في مصالحهم .. » وكتب معلق غير معروف بعد هذه العبارة قوله « وهي الآن خراب اكثرها » (صورة الارض ٢١٨) وقال ابن جبير في رحلته سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م « هي اليوم عبرة من رأى .. مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها الا بعض الجهات منها هي اليوم معمورة » (رحلة ابن جبير ، بغداد ١٩٣٠ / ١٨٥) وقال ياقوت الحموي يصف تطورها « فخربت حتى لم يبق منها الا موضع المشهد .. ومحلة بعيدة منها يقال له كرخ سامراء وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر اليها .. » ونقل عن الحسن المهلبي قوله ان الموضع الماهول من خراب المدينة القديمة « مقدار بسيرة في وسطها » (معجم البلدان ٣ / ١٧٧) .

(٢) ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الامصار (القاهرة ١٩٢٨) ١ / ١٤٧ .

(٣) انظر العاني ، نوري عبد الحميد : العراق في العهد الجلائري (بغداد ١٩٨٦) ٢٢٠ .

(٤) مكاتبات رشيدي ٢٠٣ .

(٥) انفرد الشيخ محمد السماوي (١٨٧٧ - ١٩٥٠) بوصف هذا التعمير في منظومته المطولة المعنونة « وشايع السراء في شان سامراء » (النجف ١٩٤١) ٣١ .

(٦) تظمي زاده ، مرتضى : كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ١٦٩ .

(٧) انظر مهاوي ، جاسم : تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام ، اطروحة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب بجامعة بغداد ، ط . رونيو ١٥٥ .

(٨) آل طعمة ، عبد الجواد : تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام (بغداد ١٩٤٩) ٢٤٧ .

(٩) السماوي : وشايع السراء ٣٢ والمحلاتي ، ذبيح الله : مآثر الكبراء في تاريخ سامراء (النجف ١٣٥٠ هـ) ٣٢٠ .

(١٠) السماوي ٣٢ .

(١١) اسماوي ٣٢ والمحلاتي ٣٢٢ وورد في نبذة خطية للشيخ محمد صالح السهروردي اودعها في آخر مخطوطته « اعمال الاجداد في محلات ومعاهد وآثار .. بغداد » (الجزء الثاني) ان تاريخ هذا التعمير هو سنة ١١٠٩ هـ (١٦٩٧ م) وانه اقتصر على عمل صندوق « فيه بعض تحارير ذهبية وفضية » على قبرى الامامين العسكري والهادي .

(١٢) السويدي ، عبد الرحمن ، حديقة الوزراء جـ ١ (بغداد ١٩٦١) ٣٠ .

(١٣) السماوي ، ٣٢ ـ ٣٣ والمحلاتي ٣٢٤ .

(١٤) Basvekalet Arsiv Dairesi , Tapu Defteri الدفتر ، الورقة ٣١ .

(١٥) تافرنيية ، جان بابتست : العراق في القرن السابع عشر (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٤٩) ٧٠ .

(١٦) كشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان مخطوطة كامبردج (مصورة في المجمع العلمي العراقي) الورقة ١٩ .

(١٧) نزهة الجليس ومنية الاديب الانيس ج ١ (النجف ١٩٦٧) ١٨٣ .

(١٨) خياط ، جعفر ، سامرا في المراجع الغربية . موسوعة العتبات المقدسة قسم سامراء (بغداد ١٩٦٦) ٢٩٢) .

(١٩) المصدر نفسه ٢٩٤ .

(٢٠) يذكر ذبيح الله المحلاتي (مآثر الكبراء ١٢١) انه كان على سامراء في حدود سنة ٦٦٠ هـ سور ، وهو يرى ان هذا السور بقي اما ناقصاً او غلب عليه الخراب الى زمن انشاء سور البلدة الحديث .

(٢١) المحلاتي ، مآثر الكبراء ١١٨ ـ ١٢٠ والسامرائي ، يونس ابراهيم ، دليل سامراء (بغداد ١٩٦٢) ١٣ ـ ١٦ .

(٢٢) خياط ، جعفر ، المصدر السابق ٢٩٤ .

(٢٣) المصدر نفسه ٢٩٥ .

(٢٤) المصدر نفسه ٢٩٦ .

(٢٥) المحلاتي ، تحفة الكبراء ٣٢٤ ـ ٣٢٦ والسماوي ، وشائج السراء ٣٢ .

(٢٦) السامرائي ، يونس ابراهيم ، تاريخ سامراء ج ٢ (بغداد ١٩٧١) ٢٢٣ ـ ٢٢٦ .

(٢٧) المنشي ، محمد بن احمد ، رحلة المنشي البغدادي ، ترجمة عباس العزاوي ، ٩٩ .

(٢٨) خياط ، جعفر ، المصدر السابق ٢٩٩ عن رحلة فيلكس جونز .

(٢٩) المصدر نفسه ٣٠١ .

(٣٠) السامرائي ، تاريخ سامراء ٢ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٣١) حلمي ، عبد الرحمن ، تاريخ بيوتات بغداد ص ٩٥ بتحقيقنا (بغداد ١٩٩٦) وانظر ايضاً محمد صالح السهروردي ، ترجمة الشيخ عبد المحسن السهروردي ، نشرها في آخر كتاب « نجاة الناس بكلمة الاخلاص » لعبد المحسن المذكور (بغداد ١٣٤٥ هـ) ص ٤١ حيث ورد فيه لقب الشيخ محمد صالح على النحو الآتي « قاضي سامراء والدور العليا وتكريت » .

(٣٢) كتابنا ، الاسر الحاكمة ورجال الادارة في العراق ابان القرون المتأخرة (بغداد ١٩٩٢) ١٠٧ .

(٣٣) ياقوت ، معجم البلدان ٤ / ١٢٣

(٣٤) السامرائي ، تاريخ سامراء ٢ / ٢٣٧ .

(٣٥) كمونه ، السيد عبد الرزاق ، موارد الاتحاف في نقباء الاشراف ج ٢ (النجف ١٩٦٨) ٣ ـ ٥ .

(٣٦) ينظر عن عشائر سامراء السامرائي ، تاريخ سامراء ٢ / ٢٣٧ ـ ٢٧٢ .

(٣٧) الدجيلي ، كاظم ، ماذا يرى اليوم في سامراء ، مجلة لغة العرب المجلد ١ (العدد ٣ ايلول ١٩١١) ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٣٨) خياط ، جعفر ، المصدر السابق ٢٩٣ .

(٣٩) رحلة المنشي البغدادي ٨٨ .

(٤٠) خياط ، المصدر السابق ٢٩٩ .

(٤١) المصدر نفسه ٣٠٤ .

(٤٢) السامرائي ، تاريخ سامراء ٢ / ٢٢٦ .

(٤٣) السيوطي ، عبد الرحمن ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (القاهرة ١٣٢٦ هـ) ١٩٤ .

(٤٤) الكتبي ، ابن شاكر ، فوات الوفيات ، تحقيق احسان عباس ج ١ (بيروت ١٩٧٣) ١٣٤ ـ ١٤٠ .

(٤٥) السيوطي ، بغية الوعاة ٤٢٣ وابن العماد ، شذرات الذهب ج ٦ (بيروت ١٩٧٩) ٣٤٩ .

(٤٦) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الاداب ، تحقيق مصطفى جواد (دمشق ١٩٦١) ١ / ٢٠٥ .

(٤٦ أ) مجموعة السيد عبد الفتاح الواعظ (نسخة مصورة لدى كاتب البحث) الورقة ٥٠ .

(٤٧) وبلغ في ٥٤٢ ص ٢ وهو برقم (٩٣٤٨) النقشبندي ، اسامة وضياء عباس ، مخطوطات الادب في المتحف العراقي (الكويت ١٩٨٥) ٣٢٠ .

(٤٨) كتابنا ، الآثار الخطية في المكتبة الظاهرية ج ٣ (بغداد ١٩٧٩) ٧٨ ـ ٨٠

(٤٩) كتابنا ، مخطوطات العلامة محمد سعيد الراوي ، مخطوط معد للنشر

(٥٠) حين استقرت في مكتبة الغربية الاسلامية ، وقد قام كاتب البحث بفهرسة مخطوطات هذه المكتبة ، وبضمنها مخطوطات السيد عباس حلمي القصاب التي تبلغ وحدها ١٦٥ مخطوطة الآثار الخطية في دار التربية الاسلامية ببغداد ، مجلة المورد ٦ (١٩٧٧) ع ١ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٠٧ وع ٢ ص ٢٦٥ ـ ٢٩٨ .

(٥١) يبلغ عددها ٢٥ مخطوطة بحسب الفهرس الذي وضعه الشيخ يونس ابراهيم السامرائي ، تاريخ سامراء ج ٣ (بغداد ١٩٧٣) ص ٢٣١ وقد افرد هذا الفهرس في رسالة بعنوان « تراث سامراء »

(٥٢) يبلغ عددها ١١٥ مخطوطة بحسب الفهرس السابق ص ٢٣٣ ـ ٢٣٩ .

(٥٣) مجلة لغة العرب ، المجلد ٢ (ع ٤ لسنة ١٩١١) ص ١٤٢ .

(٥٤) انظر عواد ، كوركيس ، معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج ٢ (بغداد ١٩٦٩) ص ٢٤ ـ ٣١ والسامرائي ، يونس ابراهيم ، تاريخ شعراء سامراء منذ تاسيسها حتى اليوم (بغداد ١٩٧٠) في مواضع عدة .

* هذا المقال هو فصل من فصول البحث في جوهر التفاني بين الانا والآخر .